نشأة الأنثروبولوجيا الثقافية

ان المتتبع لتاريخ نشأة الأنثروبولوجيا الثقافية كفرع من فروع الأنثروبولوجيا العامة، يمكنه الحديث عن جملة من الأعمال الاستطلاعية المبكرة، قبل الحديث عن فترة التأسيس الأكاديمي للدراسات الأنثروبولوجية الثقافية، ومن جملة الأعمال المبكرة الأولى يمكننا التطرق الى ما قام به برناردينوا سهاجون :" 1499-1590" حيث قام بدور التنصير في بلاد المكسيك، وقام بالتجوال وزيارة الكثير من القرى هناك، وأهم ما تميز به هو تعلمه للغة الأهالي، وعاش بينهم وكان يسألهم دوما عن العديد من القضايا ذات الصلة بالحياة الاجتماعية والثقافية وكذا رؤيتهم للعالم.

وظل الوضع مستمرا وبحلول القرن الثامن عشر وفي ظل موجة حركات الكشوفات الكبرى ظهرت الكثير من الأعمال التي قيدت ووصفت ما تمت ملاحظته، خاصة من قبل لبوجانفيل وكوك ولابيروز، حيث ظهرت حصيلة من المعلومات القيمة في أعمالهم حول الانسان وحياته خلال الزمن الماضي البعيد.

وظلت المحاولات مستمرة من قبل الأوربيين في اطار اعداد التقارير الوصفية حول الثقافات الغيرية، أو الانسان الآخر :"**L'autre**" الى حلول النصف الثاني من القرن التاسع عشر أين سيرت مجموعة كبيرة من الرحلات الاستكشافية نتج عنها سلسلة كبيرة من التقارير البحثية ذات الطابع الوصفي.

مرحلة البداية : القرن التاسع عشر : بوادر الاناسة أو الأنتروبولوجيا الثقافية ضمن الاتجاه التطوري

ويمكننا القول أن اشتداد نتائج التقارير والدراسات الأنتروبولوجية أو الاناسية الثقافية وتقولبها في شكل تيار فكري كان مع طروحات ورؤى ومفاهيم وبعض التعميمات التي جاء بها أصحاب النظرية التطورية، وظل تيار الاناسة الثقافية يتمتع بالحيوية حتى القرن العشرين، وقد أسهم رواد التطورية الأوائل في تطويرها على غرار ما قام به هربرت سبنسر، ولويس هنري مورغان، وادوارد تايلور، وكانت أعمالهم عبارة عن محاولات لرسم صورة عامة لتطور الثقافة منذ القدم، والبحث أيضاً عن نشأة المجتمع الإنساني، فقام " هربرت سبنسر 1820، 1903" المصنف تطوريا وبتأثر منه بطروحات داروين بتدعيم بوادر النياسة الثقافية من خلال توظيفه لمقولة داروين :" البقاء للأصلح"، أما لويس مورغان Lewis Morgan فقد اهتم بدراسة موضوع القرابة حيث ركز على دراسة :" أنساق رابطة الدم والمصاهرة في العائلة الانسانية" عام 1871، وقبلها وتحديدا عام 1851 كان قد أصدر كتابه حول:" **رابطة الايروكوازيين**"، وكان مورغان قد عالج من خلال كتابه هذا النظم الاجتماعية والسياسية في مجتمع قبلي أو مجتمع لم يرتقي بعد الى

مستوى مجتمع تحكمه الدولة، حيث كشف مورغان أن النظم الاجتماعية والسياسية قوامها العلاقات الموجودة بين الجماعات التي تشكل عندهم روابط القرابة أساسها الرئيس، ومن أبرز الموضوعات التي اشتغل عليها لويس مورغان:" اللغة"، كما أصدر كتاب:" **المجتمع الغابر أو القديم**"، وان كانت هذه الأعمال قد ساهمت بشكل كبير في تطوير الأنتروبولوجيا الاجتماعية، وأهم ما توصل اليه مورغان كدعم للنياسة الثقافية في هذه الفترة هو تحقيبه للمراحل التي مر بها الانسان وحسب رأيه أن الانسان عاش مرحلة التوحش، ثم انتقل الى المرحلة البربرية، ثم مرحلة الحضارة.

والى جانب مورغان نجد الأنثروبولوجي ادوارد تايلور الذي سافر من انكلترا الى الولايات المتحدة الأمريكية عام 1856، اين التقى الرحالة هنري كريستي حيث أقنعه بأن يرافقه في رحلة الى المكسيك أرض العادات والتقاليد والبقايا الأثرية المثيرة للفضول، حيث زارا المناطق الواقعة بجوار الساحل المكسيكي، هذه الأخيرة شدت انتباه الشاب ادوارد تايلور وشحذت انتباهه صوب الظواهر الثقافية تحديدا والتي شكلت له فضولا ممزوجا بالغرائبية، كيف لا وهو القادم والمحمل بثقافة المجتمع الفيكتوري في انكلترا. وكان من ثمار هذه الرحلة هو كتابة تقارير اثنوغرافية حول معتقدات وممارسات المكسيكيين الذين التقاهم وكان يلاحظ جملة أفعالهم وممارساتهم خلال مناشطهم اليومية ومن جملة ما جاء في هذا الشأن:" المكسيك والمكسيكيين"،" "القديم والمعاصر"، وقد شكلت هذه التقارير الاثنوغرافية المسودة وأرضية كتابه الأول عام، والذي تم نشره بعد عودته الى موطنه المملكة المتحدة1861.

لقد صنف هذا الكتاب من أبرز مؤلفات ادوارد تايلور وجاء في طبعته تحت مسمى:" **الأنواك Anahuac** " عام 1861 وهو عبارة عن مؤلف قصصي حول رحلته لمناطق الساحل المكسيكي، وظل يصدر مجموعة من المقالات من خلال دراسة عادات وتقاليد المجتمعات خصوصا القبلية منها، سواء التي كانت مزامنة لتلك الفترة خلال القرن التاسع عشر، أو تلك الغابرة التي تعود الى زمن ماضي بعيد حيث كان يستعين بنتائج الأبحاث الأركيولوجية، حتى تمكن من اصدار كتابه الهام حول:" أبحاث في التاريخ المبكر للجنس البشري وتطور الحضارة"1865 عالج فيه مسألة التطور الثقافي، كما أنجز تايلور مجموعة مقالات حول الدين واللغة، ولكن المحطة النجومية المضيئة التي سطع بها نجم تايلور كان عام 1871 عندما نشر ضمن مجلدين دراسته القيمة حول:" **الثقافة البدائية**" وبذلك دشن رسميا النشأة العلمية للأناسة أو الأنثروبولوجيا الثقافية، وكتابه الثقافة البدائية عبارة عن دراسة تحليلية للمعتقدات والممارسات الدينية لدى الانسان المسمى بدائي بصورة أكثر تفصيلا ودقة، طبع كتاب الثقافة البدائية أول الأمر في

مجلدين تناول تايلور في المجلد الأول أصول الثقافة، التطور الاجتماعي، كما تناول أيضا اللغة والأسطورة، وتناول في المجلد الثاني من كتابه الدين في ثقافة المجتمع البدائي مركزا على محاولة تفسير ظاهرة الأرواحية.

ومن أبرز ما اشتمله مؤلف تايلور هو ابداعه ومحاولته الرائعة في صياغة تعريف يكاد يكون جامعا لكلمة :" ثقافة" حيث يقول:" الثقافة أو الحضارة بمعناها الاثنوغرافي الواسع، هي تلك الكلية المعقدة والمركبة التي تشمل المعرفة والايمان والفن والأخلاق والقانون والعادات، وأي قدرات أو سلوكات أخرى يكتسبها الانسان من حيث كونه عضوا داخل المجتمع" [1]. كما ألف تايلور لاحقا كتابا آخر :" **الأنثروبولوجيا، مقدمة في دراسة الانسان**" عام 1881، وشكل هذا الكتاب تقديما ومدخلا عاما لعلم الأنثروبولوجيا في ذلك الوقت حيث أبرز فيه مؤكدا على الطابع العلمي للدراسات الأنتروبولوجية.كما أبرز المبادئ الوظيفية لتطور المجتمع والدين. وهذا خلال القرن التاسع عشر.

وكان كتاب مورغان حول:" **رابطة الايروكوازيين**" عمل وبحث ميداني قام به بين الايروكوازيين حيث قضى مدة زمنية بينهم ودرسهم من الداخل، مما جعل عمله هذا يشكل دعامة منهجية أساسية للأنثروبولوجيا الاجتماعية في الفترات اللاحقة، كما وضع تايلور في كتابه القيم :" **الثقافة البدائية**" الأسس النظرية للأنثروبولوجيا، اضافة الى النفثات التي بثها تايلور من خلال هذا الكتاب حول محددات الموضوعات البحثية ذات الأهمية في مجال الأنثروبولوحيا، حيث لفت اهتمام الباحثين لاحقا الى موضوعات ذات أهمية كدراسة المعتقدات والأديان، والخروج من دائرة الأبحاث الأركيولوجية.

كما نبه تايلور الى ضرورة توجيه الأبحاث صوب المجتمعات البدائية بوصفها تمثل المرحلة الأولى من حياة الانسان قبل الوصول الى المجتمعات المعاصرة، وهذا الذي اهتم به كثيرا حيث كان مولعا بتجميع المعلومات الاثنوغرافية المتاحة في ذلك الوقت حول المجتمعات البدائية، حيث ضمنها ضمن مؤلفاته بطريقة منهجية دقيقة، كما اعتمد عليها في عمليات التحليل والتفسير، مما أهله أن يمتلك مجموعة من الحقائق الأنثروبولوجية حول العديد من المسائل لم تكن متاحة لغيره من معاصريه، كما اتسم وتميز تايلور بالبعد النقدي من خلال مؤلفاته، كما نادى بضرورة دراسة الجنس البشري وفق مسلمة التجانس في تكوينه الطبيعي، وكل هذه الأسس المنهجية والمعرفية التي جاء بها تايلور ستسهم في تطوير

[1] - Tylor, Edward. Primitive Culture : Research into the Development of Mythology, Philosophy, Religion, Art, And Custum. London : John Murray. Volume1, 1871.P01.

البحث الأنثروبولوجي في فترات لاحقة، وساهم في ابعاد البحث الأنثروبولوجي واخراجه من دائرة البحوث والفرضيات الضنية القائمة على التخمين والتي اتسم بها البحث الأنثروبولوجي لفترة طويلة خصوصا خلال القرن الثامن عشر. وكذلك من أبرز بحوث أصحاب الاتجاه التطوري والتي مهدت لقيام اناسة ثقافية في الولايات المتحدة الأمريكية، خصوصا في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر نجد ما قام به تلميذ تايلور السير جيمس فريزر، 1854،1941"، حيث بدأ في خطة مشروع عمل أنثروبولوجي كبير منذ 1880 كان حصاد هذا المشروع أن ألف كتابه الشهير:" الغصن الذهبي" حيث شكل مضمونه محاور عديدة صنفت ضمن دائرة البحث في الأنتروبولوجيا الثقافية وهو بحث حول سر ايمان الشعوب وأخلاقها. وكان مؤلف فريزر قد أحدث ضجة غير عادية، وحقق نجاحا كبيرا من حيث عدد الطبعات المتلاحقة، ومما زاده قوة ونجاحا هو اهتمام زوجة جيمس فريزر بعمل زوجها حيث قامت بالدعاية الاعلامية لعمل زوجها كما سهرت كذلك على ترجمته.

وكان لمؤلف فريزر تأثير على العديد من المهتمين ليس في مجال الأنثروبولوجيا فحسب، وان كانت جملة الانتقادات لاحقا سيوجهها مشتغلون في المجال الأنثروبولوجي لعمل فريزر، فقد تأثر به أصحاب التحليل النفسي ومن أبرزهم سغموند فرويد، وكذلك جيزا روهايم هذا بالإضافة الى العديد من الكتاب والمهتمين. وان كان فريزر قد استغرق ما يفوق عقدين من الزمن في اعداد مؤلفه الشهير :" الغصن الذهبي" أي منذ 1880 الى مطلع القرن العشرين حوالي 1902، فان عامل الزمن ان طاوعه في نسج مؤلفه واثرائه لكن من ناحية أخرى لم يكن في صالحه، فكان قد انطلق من خلفيته النظرية التطورية في بناء فصول مؤلفه الشهير جمعا وتصنيفا وتحليلا، ولكن عند اتمامه لعمله مع عقد العشرينيات من القرن العشرين، ظهر اتجاه جديد في ساحة الاهتمام والبحث الأنثروبولوجي وصار بريق النظرية التطورية في مراحل أفوله الأخيرة، بل حتى جهاز مفاهيم الأنثروبولوجيا تغير كلية. وفتح باب النقد واسعا على فريزر وعمله، وكان من قبل بعض الأنثروبولوجيين لاذعا على غرار روبرت لوي الذي وصف فريزر على أن مجرد مصنف ومطلع ولا يمكن أن نسميه مفكرا، وكذلك انتقادات مارسيل موس، وأرلوند فان جنب، ومالينوفسكي، وايدموند ليتش الذي وصفه وصنفه من أصحاب الكراسي الوتيرة وكان بمثابة فأر بالمكتبة يمتاز بالنشاط والحذاقة. وكل هؤلاء تقريبا من أنصار النزعة الوظيفية لاحقا.

ورغم هذه الانتقادات التي وجهت لسير جيمس فريزر ولكن يمكننا القول أن عمله :" الغصن الذهبي يعد من أبرز بحوث أصحاب الاتجاه التطوري والتي مهدت لقيام اناسة ثقافية في الولايات المتحدة الأمريكية لاحقا.

لقد ساهم أصحاب الاتجاه التطوري في التمهيد لنشأة الاناسة الثقافية لاحقا كتخصص أو فرع هام من فروع علم الأنثروبولوجيا، من خلال جملة الأبحاث والدراسات التي قاموا بها، وكان ادوارد تايلور أستاذ فريزر قد حاز التفوق بين زملائه، حيث جسدت أفكار تايلور أسس متينة لمذهب التطور في الجانب الثقافي خلال القرن التاسع عشر، كما يمكننا تصنيفه ضمن الرواد الأوائل لنشأة علم الأنتروبولوجيا الثقافي في بعده التطوري.

وحسب أصحاب الاتجاه التطوري فالمجتمعات البشرية كافة تطورت انطلاقا من أصول هي" نظرية وحدة الأصل ، **Monogéniste**" أو متشابهة على الأقل " نظرية تعدد الأصل، **Polygéniste**" وقد خيل إلى العديد من الباحثين بان كل المجتمعات كانت مرشحة لأن تختار نفس الأطوار بنوع من الضرورة الداخلية وشبه البيولوجية.[(2)]

هذا الطرح شكل نوعا من التطرف، ولكن مع البحوث التي قام بها ادوارد تايلور في محاولته لفهم قضايا الحقل العلمي الجديد ومفاهيمه وأعطاه صياغة متجانسة في كتابه المؤثر الثقافة البدائية، وكان من المهم جدا افتراضه الصريح بوحدة النفس البشرية، وهي الفرضية التي شكلت تحولا عظيما في تعدد المعاني لدى الاثنوغرافيين وفي الالتزام الشامل والانساني بالمساواة والقيم الخلقية لكل النوع البشري، وأدخلت في الأنثروبولوجيا نزعة:" النسبية" relativisme" للحد من **سطوة النزعة المركزية الفيكتورية**[3]

واذا ركز أصحاب الاتجاه التطوري على البحث في أسباب التفاوت بين الثقافات، فان الاتجاه الجديد:" المدرسة الانتشارية" ترى أن البحث في أسباب التفاوت بين الثقافات غير مجدي، لأن الذين خاضوا في هذا المجال بقيت الفروض التي انطلقوا منها دون برهنة وبالتالي ظلت مجرد تخمينات، فالأنسب هو البحث عن كيفيات الانتشار من ثقافة الى أخرى، كيف تهاجر أو تنتشر أو تنتقل العناصر الثقافية من مجتمع لآخر؟

---

[2]- **Pierre Erny; ethnologie de l éducation; Presses universitaires de France;1981,p.**

[3] - فريدريك بارث وآخرون: الأنثروبولوجيا، حقل علمي واحد وأربع مدارس، ترجمة: أبوبكر أحمد باقادرو ايمان الوكيلي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، ط1، 2017، ص20.

وانطلاقا من هذا الاهتمام البحثي تضاءلت طروحات أصحاب الاتجاه التطوري على الرغم من اشاراتهم المتكررة والتي من خلالها يمكن أن نستجلي مؤشراتهم نحو الاهتمام ولو بالشكل البسيط للاختلاف والتنوع الحاصل بين الثقافات شأن ما قام به ادوارد تايلور في كتابه:" ابحاث حول ما قبل تاريخ الانسان" 1865، فكان قد طرح فرضية حصول انتقال بعض السمات الثقافية بين المجتمعات خصوصا لما رأى المجال الجغرافي الواسع الذي تنتشر في ارجائه القبائل الأمريكية رغم **تمسكه بمقولة الثقافة.**